﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَعدَ مُحاولَتِهِ إثنائَهم عن قَتلِ موسى جاءَ التَّذكيرُ بِنِعمَةِ المُلكِ والتَّخويفُ مِن سَلبِهِ

لَمّا خَيَّلَهم مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ بِهَذا الكَلامِ الَّذي أمكَنَهُ تَوجيهُهُ إلَيهَم في مُحاولَةٍ مِنهُ لإثنائِهم عَن قَتلِ موسى عليه السلام؛ شَرَعَ في وعظِهِم إظهارًا للنَّصيحَةِ لَهم والتَّحَسُّرِ عَلَيهِم، مُذَكِّرًا لَهم بِنِعمَةِ اللّه عَلَيهِم، مُحَذِّرًا لَهم مِن سَلبِها، مُستَعطِفًا بِذِكرِ أنَّهُ مِنهُم، فناداهُم نداءَ المُحبِّ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، وذكَّرهم بأشَدِّ ما يعِزُّ عَلَيهِم وهو المُلكُ، ونَبَّهَ على ما يَعرِفونَهُ مِن تَقَلُّباتِ الدَّهرِ، فأشارَ إلى ما عَهِدوهُ مِنَ ظُهورِهِم على بَني إسرائيلَ وغَيرِهِم، وهوَ ما يَتَضَمَّنُ احتِمالَ غَلَبَتِهِم ولو بَعدَ حينٍ، فنَبَّهَ على أنَّ المالِكَ للكُلِّ هو الإلَهُ الحَقُّ والمَلِكُ المُطلَقُ الَّذي لا مانِعَ لِما يُريدُ، فلا يَنبَغي لأحَدٍ مِن عَبيدِهِ أن يَتَعَرَّضَ إلى ما لا قِبَلَ لَهُ بِهِ مِن سُخطِهِ، فلِذَلِكَ ساقَ إلَيهِم سُؤالًا مُهِمًّا حَولَ قُدرَةِ اللّه تعالى عليهم، وعَدَمِ قُدرَتِهِم على الانتِصارِ لأنفُسِهِم إنَ جاءَهُم بَأسُه وعَذابُه؛ إذ لا عاصِمَ لَهُم مِنَ اللّهِ إن أرادَهم بِسوءٍ جرّاءَ تَكذيبِهِم وهَمِّهِم بقتلِ موسى عليه السلام.

ولَمّا سَمِعَ فِرعَونُ ما لا طَعنَ لَهُ فيهِ ولا قُدرَةَ لَه على دَفعِه والحِجاجِ عنهُ، وكانَ بِحَيثُ يَخافُ مِن انقِلابِ بَقيَّةِ قَومِهِ إنْ أفحَشَ في أمرِ هَذا المُؤمِنِ البَليغِ الحَكيمِ رَدَّ رَدًّا لا يَصلُحُ جَوابًا شافيًا لما قالَهُ هَذا المُؤمِنُ، فقال: إنَّ الصَّوابَ على قَدرِ مَبلَغِ عِلمِه هو ما أشارَ بِهِ مِن قَتلِ موسى عليه السلام، وإنَّ الرَّشادَ كُلَّ الرَّشادِ فيما ذَهَبَ إليه، دونَ حُجَّةٍ

أو بُرهانٍ، فدَلَّ جَوابُه على حيادِهِ عَنِ الحَقِّ، وعَلى الانقِطاعِ بالعَجزِ عَن نَقضِ شَيءٍ مِن كَلامِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَٰهِرِينَ﴾: (ظهر) أصلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، والظُّهورُ: الغَلَبَةُ، والعلوُّ[2]. فالمَعنى المحوَريُّ للظُّهور: بُروزٌ مِن أثناءٍ أو باطِنٍ إلى سَطحٍ، مَعَ شِدَّةٍ وغِلَظٍ أو قوَّةٍ[3]. والمُرادُ بِقَولِه: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: لَكُمُ السُّلطانُ فيها غالِبينَ على أهلِها مِن بَني إسرائيلَ وغَيرِهِم[4].

2) ﴿سَبِيلَ﴾: (سبل) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِن عُلوٍّ إلى سُفلٍ، وعَلى امتِدادِ شَيءٍ. وهوَ الطَّريقُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لامتِدادِهِ[5]. فالمَعنى المحوَريُّ للسَّبيل: امتِدادٌ إلى أسفَلَ مَع اتِّصالٍ[6]. والمُرادُ بالسَّبيل في الآية طَريقُ الصَّوابِ والصَّلاحِ[7].

3) ﴿ٱلرَّشَادِ﴾: (رشد) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على استِقامَةِ الطَّريقِ. والرُّشدُ والرَّشَدُ: خِلافُ الغَيِّ[8]. وإرشادُ الضّالِّ: هِدايَتُهُ الطَّريقَ وتَعريفُهُ[9]. والمُرادُ بالرَّشادِ هَهُنا: طريقُ خيرٍ وهدايةٍ، وقصدُهُ قتلُ موسى عليه السلام[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استِمرارُ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ في تَذكيرِهِم بالحَقِّ، واستِكبارُ فِرعَونَ في رَدِّهِ الفارِغِ

أخَذَ مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ في تَذكيرِهِم بِنِعَمِ اللّه عَلَيهِم، وفي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 57 (بتصرُّفٍ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظهر).
(4) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 10/ 6424.
(5) الخليل بن أحمد، كتاب العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سبل).
(7) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 319.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (رشد).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

تَحذيرِهم مِن نِقَمِه، فقالَ لقَومِه: يا أهلي ويا عَشيرَتي، أنتُمُ اليَومَ لَكُمُ المُلكُ، حالَةَ كَونِكُم غالِبينَ ومُنتَصِرينَ في أرضِ مِصرَ، عالينَ فيها على بَني إسرائيلَ قَومِ موسى، وإذا كانَ أمرُنا كَذَلِكَ فمَن يَستَطيعُ أن يَنصُرَنا مِن عَذابِ اللّه إن أرسَلَهُ عَلَينا بِسَبَبِ عَدَمِ شُكرِنا لَهُ، واعتِدائِنا على خَلقِهِ؟ وبَعدَ أن استَمَعَ فِرعَونُ إلى نَصيحَةِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ أخَذَتهُ العِزَّةُ بالإثمِ، وقالَ ما يَقولُهُ كُلُّ طاغيَةٍ مُعجَبٍ بِنَفسِهِ في رَدِّهِ على النَّصيحَةِ، مُتَّخِذًا سبيلَ المكرِ والكذبِ والتَّدليسِ والتَّمويهِ، بزعمِهِ أنَّهُ لا يُريدُ إلّا مَنفَعَتَهُم بِقَتلِ موسى، بوصفِه طَريقَ السَّدادِ والرَّشادِ، مَعَ أنَّ الدّافِعَ الحَقيقيَّ لقَولِهِ هَذا هوَ التَّخَلُّصُ مِن موسى ﷺ حَتّى يَخلوَ لَهُ الجَوُّ في تَأليهِ نَفسِهِ على جُهَلاءِ قَومِهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصل في الآيَةِ:

إذا تـرَكَـتْ أُمَّـةٌ القيَمَ الأخلاقيَّةَ سَقَطَ مُلكُها

فَصَلَ النَّظمُ الحَكيمُ قولَ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عن سابقتِها دون حُروفِ العَطفِ، لكَمالِ الانقِطاعِ بِلا إيهامٍ، فقَد جاءَت بدايةُ هَذِهِ الجملة إنشائيَّةً لَفظًا ومَعنًى ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، عَقِبَ جملة خَبَريَّةٍ لَفظًا ومَعنًى، والفَصلُ بَينَهُما لا يوهِمُ خَلافَ المَقصودِ.

انتَقَلَ الكَلامُ في هَذِهِ الآياتِ مِن مَعنًى إلى مَعنًى ومِن أُسلوبٍ إلى أُسلوبٍ، فقَد كانَتِ الآياتُ السّابِقَةُ في إنكارِ أن يَقتُلوا رَجُلًا يَقولُ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وتَفَرَّعَ مِنها ما تَفَرَّعَ، وكَأنَّ كُلَّ الآيَةِ وما تَفَرَّعَ مِنها داخِلَةٌ ومُضمَرَةٌ في هَمزَةِ الاستِفهامِ المَشحونَةِ بالإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّعَجُّبِ والتَّجهيلِ إلى آخِرِهِ، ثُمَّ يَنتَقِلُ الكَلامُ إلى الدَّولَةِ والمُلكِ والغَلَبَةِ والظُّهورِ في الأرضِ. والفَجوَةُ تَبدو بَعيدَةً بَينَ الكَلامَينِ[2].

(1) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 286 - 287.

(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 112.

لكنَّ المتمعِّنَ يُدرك التَّرتيبِ المنطقيَّ بينَ الآيتين؛ ذلك أنَّ بَقاءَ المُلكِ مَشروطٌ بالأُسُسِ والقيَمِ الأخلاقيَّةِ، لا بالبَطشِ وسَفكِ الدِّماءِ والقوَّةِ؛ لأنَّ هَذِهِ القوَّةَ المادّيَّةَ وحدَها لا تَكفي لبَقائِهِ ظاهِرًا في الأرضِ، بل لا بُدَّ مِنَ الأساسِ الأخلاقيِّ الَّذي هوَ الرَّحمَةُ والعَدلُ والحَقُّ واحترامُ الإنسانِ، واحترامُ اختياراتِ الإنسانِ، فلا يُؤَثِّمُ مَن يَقولُ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فضلًا عَن أنْ يُقتَلَ، فالمُؤمِنُ الصّالِحُ هنا يَنفُذُ بذَكائِهِ ومَكانَتِهِ، وعِلمِهِ وخِبرَتِهِ إلى هَذِهِ الحَقيقَةِ التّاريخيَّةِ والسّياسيَّةِ والأخلاقيَّةِ، فإنَّ الأساسَ الأخلاقيَّ إذا تركتْهُ أُمَّةٌ سَقَطَ مُلكُها ولَو كانَت ظاهِرَةً في الأرضِ. وهَذِهِ قاعِدَةٌ لا تَتَخَلَّفُ وتُطَبَّقُ في كُلِّ زَمانٍ وفي كُلِّ مَكانٍ، وبِهَذا تَكونُ قَد رُدِمَتِ الفَجوَةُ الَّتي بَينَ الكَلامَينِ الجَليلَينِ، وصارَ المُختَلِفُ مُؤتَلِفًا[1].

غَرَضُ النِّداءِ بِـ(يا):

تنبيهُ المُنادى لأمرٍ خَطيرٍ ذي بالٍ

في قَولِ اللهِ تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استَعمَلَ النَّظمُ الحَكيمُ أداةَ النِّداءِ (يا) الَّتي هي لنِداءِ البَعيدِ، ووَراءَ ذَلِكَ إشعارٌ بأنَّ مَعنًى جَلَلًا يُنادي قَومَهُ لَهُ؛ لأنَّ النِّداءَ تنبيهٌ للمُنادى حَتّى يَسمَعَ ما يُقالُ، ولا يَكونُ ذَلِكَ إلّا لأمرٍ لَهُ خَطَرٌ ولَهُ بالٌ[2].

نُكتَةُ النِّداءِ بِوَصفِ القَوميَّةِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

بيانُ شِدَّةِ الصِّلَةِ مع الاستِمالَةِ والاستِعطاف

في جملة: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بِلَفظِ (القَومِ)؛ فأدخَلَ قَومَهُ في الخِطابِ؛ لتذكيرهم بأواصِرِ القرابة؛ ليتحقَّقوا أنَّه ناصحٌ ومريدٌ الخيرَ لهم ومشفقٌ عليهم، وليَستَهويَهم إلى تَعضيدِهِ أمامَ فِرعَونَ، فلا يَجِدَ فِرعَونُ بُدًّا مِنَ الانصياعِ إلى اتِّفاقِهِم وتَظاهُرِهِم، وأيضًا فإنَّ

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 112.
(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 114.

تَشريكَ قَومِهِ في المَوعِظَةِ أدخَلُ في بابِ النَّصيحَةِ، فابتَدَأ بِنُصحِ فِرعَونَ؛ لأنَّهُ الَّذي بيَدِهِ الأمرُ والنَّهيُ، وثَنّى بِنَصيحَةِ الحاضِرينَ مِن قَومِهِ تَحذيرًا لَهم مِن مَصائِبَ تُصيبُهم إنِ امتَثَلوا أمرَ فِرعَونَ بِقَتلِ موسى. وهَذا التَّرتيبُ في إسداءِ النَّصيحَةِ نَظيرُ التَّرتيبِ في قَولِ النَّبي ﷺ: «ولأئمَّةِ المُسلِمينَ وعامَّتِهم»[1].

مَعنى اللّامِ في ﴿لَكُمُ﴾:

التَّذكيرُ بِنِعمَةٍ عَظيمَةٍ ومِنحَةٍ جَليلَةٍ، وهي تَمَكُّنُ المُلكِ لَهُم في أرضِ مصر

جاءَتِ اللّامُ مِن كَلِمَةِ ﴿لَكُمُ﴾ في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ لإفادَةِ المِلكِ، فدَلَّت على تَمَكُّنِ المُلكِ لَهُم في أرضِ مِصرَ، وظُهورِهِم على مَن ناوَأهُم، وفيها تَذكيرٌ بِنِعمَةٍ عَظيمَةٍ ومِنحَةٍ جَليلَةٍ مِنَ اللّه تعالى لهَؤُلاءِ القَومِ، ومِن ثَمَّ فلا يَنبَغي أن يَكونَ المُقابِلُ هو التَّكذيبَ والاستِكبارَ والهَمَّ بِقَتلِ نَبيِّ اللّهِ موسى عليه السلام.

نُكتَةُ تَقديمِ شِبهِ الجملة ﴿لَكُمُ﴾:

اختِصاصُ آلِ فِرعَونَ بِنِعمَةِ المُلكِ، وتَذكيرُهم بِما مَنَّ اللّه تعالى عليهم

قَدَّمَ النَّظمُ الجَليلُ شِبهَ الجملة ﴿لَكُمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، وكانَ مُقتَضى الظّاهِرِ أن يُقال: (يا قَومِ المُلكُ لَكُم اليَومَ)، وعَدَلَ البَيانُ القُرآنيُّ عَن هَذا الظّاهِرِ لإفادَةِ الاختِصاصِ - أي: اختِصاصِ آلِ فِرعَونَ بِهَذِهِ النِّعمَةِ - وتَذكيرِهم بِما مَنَّ اللّه تعالى عَلَيهِم. وفيها إثارَةٌ لنَخوَتِهِم للمُحافَظَةِ على عِزِّهِم وسُلطانِهِم وغَلَبَتِهِم، ولَيسَ في حَياةِ المَرءِ أفضَلُ مِن أن يَكونَ في وطَنٍ عَزيزٍ ظاهِرٍ غالِبٍ، وقدَ كانَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ صاحِبَ بَصيرَةٍ حينَ ذَكَّرَ قَومَهُ بِعِزِّهِم وسُلطانِهِم وقوَّتِهِم وأنَّهُم ظاهِرونَ في الأرضِ، وأنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِمّا يَجِبُ أن يُحافِظوا عَلَيهِ[2].

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، حديث رقم: (205).
(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 112.

مَعنى (أل) في ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾:

هيبةُ الملكِ سبيلُ عِزِّهم وكَرامَتِهم، والسَّعيُ إلى الحفاظِ عليه واجبٌ

جاءَتِ اللّامُ في لَفظَةِ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ من قَولِ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ للعَهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: لَكُم ذَلكَ المُلكُ الَّذي عَهِدْتُموه، ودَرَجتُم في رُبوعِه، والَّذي هوَ مَناطُ عِزِّكُم وكَرامَتِكُم في الدُّنيا، فلا يَنبَغي لَكُم أن تَتَهاوَنوا في الحِفاظِ عَلَيهِ، ويَجِبُ عَلَيكُم أن تَنهَضوا لمَنعِ فِرعَونَ مِنَ الإقدامِ على قَتلِ موسى عليه السلام؛ لئلّا يَتَسبَّبَ في ضَياعِ مُلكِكُم، وذَهابِ دَولَتِكُم. وقَد "ناداهُم بالمُلكِ الَّذي هوَ أعظَمُ مَراتِبِ الدُّنيا وأجَلُّها، وهو مِن جِهَةِ شَهَواتِهم"[1].

فائِدَةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ﴾:

مِن نِعَمِ الله عليهم طولُ مُلكِهم، وعَراقَةُ عِزِّهِمُ الدُّنيَويِّ

عَدَلَ النَّظمُ الحَكيمُ عَنِ التَّعبيرِ بالجملة الفِعليَّةِ في قَولِ الله تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، فلَم يَقُل: (يا قَومِ قَد مَلَكتُمُ الأرضَ)، وآثَرَ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّةِ ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ﴾؛ لِما في التَّعبيرِ بها مِنَ الدَّلالَةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ، بِخِلافِ الجملة الفِعليَّةِ الَّتي تَدُلُّ على التَّجَدُّدِ والحُدوثِ، ودلالتها هنا الإشارَةُ إلى طولِ مُلكِهم، وعَراقَةِ عِزِّهِمُ الدُّنيَويِّ، فإذا أرادوا الحِفاظَ على هَذا الدَّوامِ والثَّباتِ فإنَّه يَنبَغي عَلَيهِمُ الكَفُّ عن الفَسادِ والاستِكبارِ؛ لئلّا تَكونَ العاقِبَةُ وخيمَةً بِزَوالِ مُلكِهم وتَشَتُّتِ جَمعِهم.

فائِدَةُ ذِكرِ الظَّرفِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

التَّعبيرُ بالظَّرفِ إمّا للتَّذكيرِ بالماضي، وإمّا للتَّحذيرِ مِنَ القادِمِ، وإمّا للامتِنانِ بالحاضِرِ

زادَ النَّظمُ الحَكيمُ على أصلِ المَعنى التَّعبيرَ بالظَّرفِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ إذ مُقتَضى الظّاهِرِ أنَّهُ قَد يُكتَفى بالقَولِ: (لَكُمُ المُلكُ ظاهِرينَ في الأرضِ)، ولَكِنَّ البَيانَ القُرآنيَّ أضافَ الظَّرفَ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ لأحَدِ أُمورٍ ثَلاثَةٍ، أو لَها مُجتَمِعَةً، **فالأوَّلُ:** التَّنبيهُ إلى ما يَعرِفونَهُ مِن تَقَلُّباتِ الدَّهرِ وما عَهِدوهُ مِنَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 254.

الخِذلانِ في بَعضِ الأزمانِ[1]. **والثّاني**: التَّحذيرُ مِنَ الاغترارِ بقوَّتِهم في لَحظَتِهمُ الرّاهِنَةِ، فقَد يُعاقِبُهُمُ اللّهُ أشَدَّ العِقابِ في أيّامِهم القادِمَةِ جَرّاءَ تَكذيبِهم واستِكبارِهم. والثّالِثُ: الإشارَةُ إلى أنَّ عِزَّهُم ومُلكَهُمُ الظّاهِرَ والغالِبَ لَم يَكُن في يَومٍ مِن أيّامِهم كَما هوَ الحالُ اليَومَ، وأنَّ لَهم في يَومِهم هَذا ما يَجِبُ أن يُحافِظوا عَلَيهِ.

المَوقِعُ النَّحويُّ لقَولِهِ: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

جاءَت لَفظَةُ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ حالًا من الضَّميرِ في ﴿لَكُمُ﴾، والعامِلُ في الحالِ هوَ العامِلُ في ﴿لَكُمُ﴾. و﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: جارٌّ ومَجرورٌ مُتَعَلِّقان بِـ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾[2]، فهيَ بَيانٌ لِحالِ القَومِ في حاضِرِهم الَّذي يُكَذِّبونَ فيه الأنبياءَ والمُرسَلينَ، وأنَّ مُلكَهم عظيمٌ واسعٌ، فلْيَحذروا مِن زوالِه بقتلِ موسى والإفسادِ في الأرض.

الدَّلالةُ على سيطرتِهم وغَلَبتِهم واتِّساعِ رُقعةِ مُلْكِهم

دَلالَةُ التَّعبيرِ بِـ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ عن تَمَكُّنِ آلِ فِرعَونَ في أوجِ مُلكِهم واستِعبادِهم لبَني إسرائيلَ وغَيرِهم بقَولِه: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والمُرادُ: غالِبينَ فيها، وتَعني: أنَّ سُلطانَكُم على أرضِكُم وثَرَواتِكُم وتُرابِكُم سُلطانٌ ظاهِرٌ، وبِجِوارِ هَذا غَلَبَتُكُم في الأرضِ ومَكانَةُ قوَّتِكُم وهَيبَتِكُم في صُدورِ الأُمَمِ مِن حَولِكُم[3].

نِعمَةُ الظُّهورِ والغَلَبَةِ تَقتَضي شُكرَ المُنعِمِ، لا مُجازاتَها بالجَفاءِ والاستِكبارِ

وقد آثَرَ البَيانُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بِمادَّةِ الظُّهورِ؛ لدلالتِه على قوَّةٍ وبُروزٍ، وغَلَبَةٍ، وعلوٍّ. وهَذا الظُّهورُ والبُروزُ والقوَّةُ يَقتَضي شُكرَ المُنعِمِ الجليلِ تعالى، لا مُقابَلَةَ إنعامِهِ بالجَفاءِ والاستِكبارِ والتَّكذيبِ والعِصيانِ والهَمِّ بَقتلِ موسى عليه السلام.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 57.
(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 148.
(3) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 10/ 6424.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ والمَجازِ في قَولِهِ: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

نُكرانُ مِنَّةِ الله تعالى عليهم بالنَّصر والغَلَبة مَدْعاةٌ لغضبِه جلَّ شأنُه

في قَولِ اللّه تعالى: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ صَوَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ النَّصرَ والغَلَبَةَ كَأنَّهُما أمرانِ مادّيّانِ مَحسوسانِ تَراهُما الأعينُ وتُدرِكُهُما الأبصارُ، وفي ذَلِكَ بَيانٌ لِمِنَّةِ اللّه تعالى عليهم وإحسانِهِ إلَيهِم، لعلَّهُم يَرتَدِعونَ عَن غَيِّهِم. وفي هذِهِ المَوعِظَةِ تَذكيرٌ بِنِعمَةِ اللّه عَلَيهِم، وتَمهيدٌ لتَخويفِهِم مِن غَضَبِ اللّه؛ أي: لا تَغُرَّنَّكم عَظَمَتُكم ومُلكُكم؛ فإنَّهُما مُعَرَّضانِ للزَّوالِ إنْ غَضِبَ اللّه عَلَيكم، والمَقصودُ: تَخويفُ فِرعَونَ مِن زَوالِ مُلكِهِ، ولَكِنَّهُ جَعَلَ المُلكَ لقَومِهِ لتَجَنُّبِ مواجَهَةِ فِرعَونَ بِفَرضِ زَوالِ مُلكِهِ[1].

فائِدَةُ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المُلكُ للهِ وحدَهُ لا لأحَدٍ سِواهُ

جاءَ حَرفُ الجَرِّ ﴿فِي﴾ في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُفيدًا للظَّرفيَّةِ، فنَبَّهَ على الإلَهِ الواحِدِ القَهّارِ الَّذي لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرض بِقَولِهِ هذا، مُعَبِّرًا بأداةِ الظَّرفِ الدّالَّةِ على الاحتياجِ تَرهيبًا لَهُم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: أرضِ مِصرَ الَّتي هي لحُسنِها وجَمعِها المَنافِعَ كالأرضِ كُلِّها الَّتي غَلَبتُمُ النّاسَ عَلَيها[2].

معنى الفاءِ في ﴿فَمَن﴾:

يَجِبُ أن يُصانَ المُلكُ بِغَيرِ أُسلوبِ التَّحريضِ والتَّآمُرِ

أشارَ الطّاهِرُ ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ الفاءَ في جملة ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ تَفريعيَّةٌ، فقال: وفَرَّعَ على هَذا التَّمهيدِ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾[3].

والّذي نراه أنَّ الفاءَ هنا فَصيحَةٌ؛ فهيَ مُفصِحَةٌ عَن شَرطٍ مُقَدَّرٍ، والتَّقدير: فإذا أسَأنا استخدامَ مُلكِنا وقوَّتِنا وقَتَلْنا رسلَ اللّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 57.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 131.

وأفسَدْنا في الأرض فمَن يَنصُرُنا مِن بَأسِ الله إن جاءَنا؟ وقد حَذَفَ النَّظمُ الحَكيمُ الشَّرطَ المُقَدَّرَ بُغيَةَ الاختِصارِ والإيجازِ.

وثَمَّةَ فراغٌ بَينَ هَذِهِ الجملة وبَينَ الجملة الَّتي تَرَتَّبَت عَلَيها؛ لأنَّ قيامَ المُلكِ والسُّلطانِ والقوَّةِ الظّاهِرَةِ لا يَتَرَتَّبُ عَلَيه مَجيءُ البَأسِ مِنَ الله، فلا بُدَّ أن يَكونَ بَينَ الكَلامَينِ مَعنًى مَطويٌّ مِن جِنسِ المَعنى الَّذي بَيَّنّاهُ بَينَ إنكارِ جَريمَةِ العَزمِ على قَتلِ مَن جاءَ بالبَيِّناتِ وبينَ الحَديثِ عَنِ المُلكِ، وكَأنَّ المُلكَ يَجِبُ أن يُصانَ بِغَيرِ هَذا الأُسلوبِ الَّذي تَتَّبِعونَهُ؛ مِن تَحريضِ كِبارِ الدَّولَةِ على موسى، والقَولِ بأنَّهُ سَيُبَدِّلُ دينَكُم ويُظهِرُ في الأرضِ الفَسادَ، ثُمَّ الهَمِّ بِقَتلِهِ، كُلُّ ذَلِكَ لَيسَ حِمايَةً للمُلكِ، وإنَّما هوَ تَدميرٌ للمُلكِ؛ لأنَّ الظُّلمَ والبَغيَ وسَفكَ دِماءِ الكِرامِ هوَ المِعْوَلُ الَّذي لا تُخطِئُ ضَرَباتُهُ مَفاصِلَ المُلكِ[1].

بَلاغَةُ الاستِفهامِ ونَوعُهُ وغَرَضُهُ:

التَّنبيهُ البَليغُ، والمَوعِظَةُ المُؤَثِّرَةُ، والتَّذكيرُ بِقُدرَةِ اللهِ

جاءَت (مَن) في قَولِ الله تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ عَن كُلِّ ناصِرٍ، والمَعنى: فلا نَصرَ لَنا مِن بَأسِ الله[2]. والمُرادُ التَّنبيهُ البَليغُ والمَوعِظَةُ المُؤَثِّرَةُ والتَّذكيرُ بِقُدرَةِ الله تعالى عليهم، لَعَلَّهُم يَرتَدِعونَ عَن غَيِّهِم وهَمِّهِم بقَتلِ موسى عليه السلام. ومِن حِكمَةِ هَذا الرَّجُلِ الصّالِحِ أنَّهُ يَعلَمُ أنَّ بَأسَ الله لا يُدفَعُ ولا يُرَدُّ، فأتى بالاستِفهامِ الإنكاريِّ الَّذي يُفيدُ أنَّهُ لا أحَدَ عاصِمٌ لَهُم مِن بأسِ اللهِ، وأنَّ قوَّتَهُم هَذِهِ الظّاهِرَةَ واللَّغوَ الفاسِدَ المُحيطَ بها من مِثلِ ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38] كُلُّ هَذا لا يَمُدُّ بِنَصرٍ، وإنَّما العَدلُ والرَّحمَةُ والمُحافَظَةُ على أُصولِ القيَمِ الإنسانيَّةِ الرَّحيمَةِ الَّتي لا تَمُدُّ يَدًا

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 114 - 115.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 131.

بالإيذاءِ للصّالِحينَ مِنَ النّاسِ هو الكفيلُ بدوامِ المُلكِ، وهَذِهِ مَعانٍ مِن أكرَمِ المَعاني[1].

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿يَنصُرُنَا﴾:

امتِناعُ حُدوثِ النَّصرِ أو تَجَدُّدِ مَعالِمِهِ؛ لتَكذيبِهم واستِكبارِهم وفَسادِهم

التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَنصُرُنَا﴾ للدَّلالَةِ على امتِناعِ حُدوثِ النَّصرِ فضلًا عن تَجَدُّدِ مَعالِمِهِ، فهُم إن انتَصَروا في مَوقِعَةٍ أو حادِثَةٍ فإنَّ النَّصرَ مُمتَنِعٌ عَنهُم في بَقيَّةِ المَواقِعِ والحَوادِثِ، وذَلِكَ لتَكذيبِهم واستِكبارِهم وفَسادِهم وهَمِّهِم بِقَتلِ النَّبيِّ الكَريمِ الَّذي جاءَ ليستَنقِذَ بَني إسرائيلَ مِن بَراثِنِهِمُ الآثِمَةِ.

مَعنى ﴿مِنۢ﴾ في قَولِهِ: ﴿مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾:

سُنَّةُ اللهِ في المُكَذِّبينَ ابتداؤهم بالعَذابِ، فإن رَجَعوا نَجّاهُم مِمّا ابتَدَأهُم بِهِ

جاءَت ﴿مِنۢ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ ابتدائيَّةً، فأفادت ابتداءَ بَأسِ اللّهِ وعَذابِهِ الشَّديدِ للمُكَذِّبينَ المُستَكبِرينَ المُتَجَبِّرينَ في الأرضِ على غَيرِ مُرادِ اللّه تعالى. وفيها دَلالَةٌ على تَدَرُّجِ العَذابِ والبَأسِ بِهِم، وأنَّ سُنَّةَ اللّهِ في المُكَذِّبينَ أن يَبتَدِئَهُم بالعَذابِ، فإن رَجَعوا وأنابوا خَفَّفَ اللّهُ عَنهُم ولَطَفَ بِهِم ونَجّاهُم مِمّا ابتَدَأهُم به مِنَ العَذابِ.

نَوعُ الإضافَةِ في ﴿بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾، وفائِدَةُ ذِكرِ اسمِ الجَلالَةِ:

تَخصيصُ البَأسِ بأنَّهُ مِنَ اللهِ وحدَهُ؛ لإفادَةِ عِظَمِ البَأسِ وللتَّخويفِ والتَّرهيبِ

في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ أضافَ النَّظمُ الحَكيمُ كَلِمَةَ ﴿بَأۡسِ﴾ إلى لَفظِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهِ﴾، وهيَ إضافَةٌ مَعنَويَّةٌ، على مَعنى اللّامِ الجارَّةِ المُفيدةِ للاختصاصِ؛ أي: مِن بَأسٍ للّه، فأفادَتْ تَخصيصَ البَأسِ بأنَّهُ مِنَ اللّه تعالى لا مِن أحدٍ غَيرِه؛ لبيانِ عِظَمِ هَذا البَأسِ وشِدَّتِه، وللتَّخويفِ والتَّرهيبِ. وعَبَّرَ باسمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ لبيانِ أنَّ بلاءَ اللّهِ إنْ نزَلَ لا يُرَدُّ ولا يُصَدُّ، فاسمُ الجلالة خاصٌّ بالذّاتِ الإلهيَّةِ، واللّهُ

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 115.

هوَ الَّذي لَهُ المُلكُ كُلُّهُ، فلا يَنبَغي لأحَدٍ أن يَتَجَبَّرَ في مُلكِهِ تعالى، بَل يَنبَغي أن يُذعِنَ لهُ بالخُضوعِ والاستِسلامِ.

نُكتَةُ إيثارِ الشَّرطِ بِـ ﴿إن﴾:

التَّنبيهُ على إمكانِ العَذابِ مَعَ إتاحَةِ فُرصَةِ النَّجاةِ بالتَّوبَةِ والأوبَة

في قَولِ اللهِ تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ استَعمَلَ النَّظمُ الحَكيمُ أداةَ الشَّرطِ ﴿إن﴾ الَّتي تُفيدُ الشَّكَ وعَدَمَ القَطعِ، دونَ أداةِ الشَّرطِ (إذا) الَّتي تُفيدُ رُجحانَ الظَّنِّ والقَطعَ، وذَلِكَ للتَّنبيهِ على أنَّ عَذابَهُ لَهم أمرٌ مُمكِنٌ، والعاقِلُ مَن يُجَوِّزُ الجائِزَ ويَسعى في التَّدَرُّعِ مِنهُ[1]، فلَم يَقطَع مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ بِمَجيءِ عَذابِ اللهِ؛ لأنَّ أداةَ الشَّرطِ ﴿إن﴾ تَأتي في المَعنى المَشكوكِ فيهِ، وبِهَذا ابتَعَدَ عَنِ التَّهديدِ والتَّخويفِ الأشَدِّ، وجَعَلَ فُرصَةَ النَّجاةِ مَفتوحَةً. ثُمَّ إنَّهُ قالَ: ﴿يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ وهوَ يَعلَمُ أنَّ بَأسَ اللهِ لا يُدفَعُ ولا يُرَدُّ[2]؛ لفَتحِ بابِ الرَّجاءِ.

بَلاغَةُ المَجازِ في إسنادِ المَجيءِ إلى البَأسِ:

تَشخيصُ التَّرهيبِ والتَّخويفِ أدْعَى إلى العِظَة

في قَولِ اللهِ تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ أسنَدَ النَّظمُ الحَكيمُ المَجيءَ إلى البَأسِ، فشَبَّهَ البَأسَ بِشَيءٍ مادّيٍّ يَروحُ ويَجيءُ، والأصلُ أنَّ البَأسَ لا يَجيءُ، فالمَجيءُ مُستَعارٌ للحُدوثِ والحُصولِ بَعدَ أن لَم يَكُن، تَشبيهًا لحُدوثِ الشَّيءِ بِوُصولِ القادِمِ مِن مَكانٍ آخَرَ بِنَقلِ الخُطواتِ؛ إذ هوَ مِن صِفاتِ الأحياءِ، وإنَّما أخبَرَ بِذَلِكَ مَجازًا، ففي الصّورَةِ المَجازيَّةِ تَشخيصٌ للتَّرهيبِ والتَّخويفِ، وإسنادُ المَجيءِ إلى البَأسِ مَجازٌ عَن وُصولِهِ إليهِم، والمُرادُ أوائِلُ البَأسِ وعَلاماتُهُ[3].

بَلاغَةُ استعمالِ ضميرِ المتكلِّمين في ﴿يَنصُرُنَا﴾ و ﴿جَآءَنَاۚ﴾:

الحَسَنَةُ تَخُصُّ، والسَّيِّئَةُ تَعُمُّ

اختَلَفَ الإسنادُ في جملة ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 57.
(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 115.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 228.

ٱلْأَرْضِ﴾ عَن جملة ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾، فلَم يُدخِلِ الرَّجُلُ الصّالِحُ نَفسَهُ في قَضيَّةِ المُلكِ؛ لعِلمِهِ وحِكمَتِهِ؛ فإنَّ المُلكَ لا يُحِبُّ الشُّرَكاءَ والأندادَ، فنَسَبَ ما يَسُرُّهم مِنَ المُلكِ والظُّهورِ في الأرضِ إلَيهِم خاصَّةً، ثُمَّ أدمَجَ نَفسَهُ مَعَ قَومِهِ في ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جَآءَنَا﴾؛ ليُرِيَهم أنَّهُ يَأبى لقَومِهِ ما يَأباهُ لنَفسِهِ، وأنَّ المُصيبَةَ إن حَلَّت لا تُصيبُ بَعضَهم دونَ بَعضٍ، وإبعادًا للتُّهمَةِ، وحَثًّا على قَبولِ النَّصيحَةِ[1]، فنَظَمَ نَفسَهُ في سِلكِهِم فيما يَسوءُهم مِن مَجيءِ بَأسِ اللهِ تَعالى تَطييبًا لقُلوبِهِم، وإيذانًا بأنَّهُ مُناصِحٌ لَهم ساعٍ في تَحصيلِ ما يُجديهِم ودَفعِ ما يُرديهِم سَعيَهُ في حَقِّ نَفسِهِ؛ ليَتَأثَّروا بنُصحِهِ[2].

نُكتَةُ حَذفِ جَوابِ الشَّرطِ وتقديمِ ما يدلُّ عليه:

حَذَفَ النَّظمُ الجَليلُ جَوابَ الشَّرطِ في قول اللهِ تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ ﴿إِن جَآءَنَا﴾، وقدَّمَ ما يدلُّ عليه وهو قولُهُ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾، والتَّقديرُ: (إنْ جاءَنا بأسُ اللهِ وعذابُهُ فَمَن يَنصُرُنا مِنه؟)، وفي تقديمِ ما يدلُّ على جوابِ الشَّرطِ وحذفِهِ بعد أداةِ الشَّرطِ دلالةٌ على اهتمامِ النَّظمِ القرآنيِّ بالمتقدِّم، وفي ذلك تمامُ التَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ فلا ناصرَ مِن بأسِ اللهِ إلّا اللهُ؛ لتَذهَبَ نُفوسُ آلِ فِرعَونَ في الخوفِ من بأسِ اللهِ كُلَّ مَذهَبٍ، لَعَلَّهُم يَرتَدِعونَ عَن غَيِّهِم وطُغيانِهِم.

تمامُ التَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ فلا ناصرَ مِن بأسِ الله إلّا الله

نُكتَةُ فصلِ قَولِهِ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾:

فَصَلَ النَّظمُ الحَكيمُ جملة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ عَن سابقتِها، فلم يَعطِفْها بالواوِ، وفي ضَوءِ القاعِدَةِ يَكونُ قَولُ فِرعَونَ تَعقيبًا على قَولِ مُؤمِنِ آلِ فرعون، ثُمَّ جاءَتِ الآيَةُ بَعدَها بالواوِ للإشارَةِ إلى أنَّ الرَّجُلَ المُؤمِنَ لَم يَشَأ أن يُطاوِلَ الحِوارَ مَعَ

مُسارَعَةُ فِرعَونَ إلى الهمِّ بإبطالِ مَفعولِ حَديثِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 57.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 318.

فِرعَونَ، فقالَ ما قالَ في مَقامٍ آخَرَ، ولَم يُعَقِّبْ على قَولِ فِرعَونَ في المَجلِسِ كَما عَقَّبَ فِرعَونُ على قَولِهِ[1].

وفي حَذفِ الواوِ ما يُنبِئُ عَن مُسارَعَةِ فِرعَونَ إلى إبطالِ مَفعولِ حَديثِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ في نُفوسِ الحاضِرينَ مِنَ المَلَإِ المُحتَشِدينَ لِمُناقَشَةِ قَضيَّةِ موسى عليه السلام وهَمِّ فِرعَونَ بِقَتلِه، فقد تَفَطَّنَ فِرعَونُ اللَّعينُ إلى أنَّهُ المُعَرَّضُ بِهِ في خِطابِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ المَوَجَّهِ إلى قَومِهِ، فسارَعَ إلى مُقاطَعَةِ كَلامِه، وبَيَّنَ سَبَبَ عَزمِهِ على قَتلِ موسى عليه السلام؛ بأنَّهُ ما عَرَضَ عَلَيهِم ذَلِكَ إلّا لأنَّهُ لا يَرى النَّفعَ إلّا في قَتلِ موسى ولا يَستَصوِبُ غَيرَ ذَلِكَ، ويَرى ذَلِكَ هو سَبيلَ الرَّشادِ، وكَأنَّهُ أرادَ ألّا يَترُكَ لنَصيحَةِ مُؤمِنِهِم مَدخَلًا إلى نُفوسِ مَلَئِهِ، خيفَةَ أن يَتَأثَّروا بِنُصحِهِ فلا يُساعِدوا فِرعَونَ على قَتلِ موسى عليه السلام.

ولِكَونِ كَلامِ فِرعَونَ صَدَرَ مَصدَرَ المُقاطَعَةِ لكَلامِ المُؤمِنِ جاءَ كلامُ فِرعَونَ في النَّظمِ القرآنيِّ مَفصولًا غَيرَ مَعطوفٍ، وهي طَريقَةُ حِكايَةِ المُقاوَلاتِ والمُحاوَرَةِ[2].

نوعُ القَصرِ وطريقتُهُ والغَرَضُ مِنهُ:

في جملة ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ جاءَت ﴿مَآ﴾ نافيَةً، و﴿إِلَّا﴾ أداةَ حَصرٍ وتَوكيدٍ[3]، وكَذَلِكَ الحالُ في الجملة التّاليَةِ، فجاءَ النَّظمُ الجَليلُ بِجُملَتَينِ مَبنيَّتَينِ على قَصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، بطريقةِ النَّفيِ والاستِثناءِ، الأولى تَأكيدُ ما يَراهُ، وأنَّهُ لا يُريهِم إلّا ما يَراهُ، والثّانيَةُ تَأييدُ ما يَراهُ وأنَّهُ لا يَهديهِم إلّا سَبيلَ الرَّشادِ، ولَيسَ الأمرُ كَما سَمِعوا مِنَ الرَّجُلِ المُؤمِنِ؛ ولِذَلِكَ تَرى هَذِهِ الجملة المُؤَكَّدَةَ بالنَّفيِ والاستِثناءِ، الدّالَّةَ على أنَّهُ لا يُريهِم إلّا ما يَراهُ غِطاءً للحَقيقَةِ، ولَيسَتْ هي الحَقيقَةَ.

اللُّجوءُ إلى أُسلوبِ الغَطرَسَةِ والمُبالَغَةُ في التَّوكيدِ دَليلُ على فُقدانِ الحُجَّة

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 116.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

(3) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 149.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بِفِعلِ الرُّؤيَةِ مادَّةً وصيغَةً في المَوضِعَينِ:

تَدليسُ فرعَونَ بِتَكريرِ فِعلِ الرُّؤيَةِ إمعانٌ في التَّضليلِ

في جملة ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ عَبَّرَ البيانُ القُرآنيُّ بِفِعلِ الرُّؤيَةِ في المَوضِعَينِ، والمَعنى: ما أجعَلُكم رائينَ إلّا ما أراهُ لنَفسي؛ أي: ما أُشيرُ عَليكم بأن تَعتَقِدوا إلّا ما أعتَقِدُهُ، فالرُّؤيَةُ عِلميَّةٌ؛ أي: لا أُشيرُ إلّا بِما هو مُعتَقَدي[1]. فكَلِمَةُ ﴿أُرِيكُمۡ﴾ بِضَمِّ هَمزَةِ المُضارَعَةِ مِن قَولِهم: (أراهُ كَذا)؛ أي: جَعَلَهُ يَراهُ، فإنْ كانَ مِمّا يُرى بالقَلبِ كالرَّأيِ تَعَدَّى لثلاثةِ مفاعيلَ، وإنْ كان مِمّا يُشاهَدُ بالبصرِ تَعَدَّتْ لمفعولين، ولمّا دَلَّ السّياقُ هنا على أنَّهُ استَيقَنَهُ عبَّرَ عنه كَأنَّهُ يَراهُ بِعَينِهِ، فهو وإنْ كان قلبيًّا إلّا أنَّه لوُضوحِهِ لديهِ صارَ مُجسَّدًا مَرئيًّا بالعين.

وجملة فِرعَونَ مَعناها: لا أُبَيِّنُ لَكُم إلّا الَّذي أراهُ بعيني؛ يَعني: أنّي أُقَدِّمُ لَكُم خالِصَ نُصحي، وتَحتَ هَذِهِ الجملة نَفيُ أن أكونَ كاذِبًا لَكُم؛ لأنَّ الَّذي يُريكَ غَيرَ ما يَراهُ - وهوَ ما يَحرِصُ فِرعَونُ على نَفيهِ - يَكذِبُكَ في الرَّأيِ، والقُرآنُ دالٌّ على أنَّ فِرعَونَ كانَ يَكذِبُ على نَفسِهِ، فموسى ﷺ أراهُ الآيَةَ الكُبرى فكَذَّبَ، وقالَ لَهُ موسى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: 102][2].

بلاغةُ الاستِثناء:

شِدَّةُ المُبالَغَةِ في الخطابِ بِسَبَبِ فُقدانِ البرهانِ والافتِقارِ إلى البيان

جاءَ الاستِثناءُ في جُملَتَي فِرعَونَ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ استِثناءً مُفَرَّغًا؛ فحذَفَ المُستثنى منه ولم يَذكُرْهُ لئلّا يرتسمَ أذهانهم وتصوُّرِهم رأيٌ إلّا رأيُهُ، ولا يَدخُلَ إلى قلوبِهم هدايةٌ إلّا هدايتُهُ، وفي ذلك شِدَّةُ مُبالَغَةٍ من فِرعَونَ في تَوكيدِ كَلامِهِ لَمّا أعيَتْهُ الحُجَّةُ، ولَم يَجِد مِنَ البَراهينِ والأدِلَّةِ ما يَدعَمُ إرادَتَهُ الآثِمَةَ وسَعيَهُ الخَسيسَ في قَتلِ موسى ﷺ، وهَذا شَأنُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 116.

الطُّغاةِ؛ فإنَّهُم يَجعَلونَ دأبَهُم تَرسيخَ كَلامِهِم في أذهانِ الشُّعوبِ مِن دونِ بَيِّنَةٍ أو حُجَّةٍ، باعتمادِ التَّكرارِ والتَّرديدِ ما استَطاعوا إلى ذَلِكَ سَبيلًا.

مَعنى ﴿مَآ﴾ ومَوقِعُ الجملة بَعدَها:

﴿مَآ﴾ الثّانيَةُ في قولِهِ سبحانه ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ اسمٌ مَوصولٌ في مَحَلِّ نَصبٍ مَفعولٌ بِهِ ثانٍ. والتَّعبيرُ به يدلُّ على إرادةِ العمومِ؛ لأنَّه اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العُمومِ؛ أي: مِن بينِ كلِّ الآراءِ رأيي هو الصَّوابُ، فلا يُخالِفُني أحدٌ أو يُعارِضُني فردٌ. وهذا دَيْدَنُ الطُّغاةِ المُستكبرينَ استبدادًا بالرَّأيِ، وتفرُّدًا بالقرار.

المُستبدُّ لا يَرى الصِّحَّة إلّا في قوله

نُكتَةُ حَذفِ مَفعولِ ﴿أَرَىٰ﴾:

حَذَفَ النَّظمُ الحَكيمُ مفعولَ الفعلِ ﴿أَرَىٰ﴾ في جملة ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، والتَّقديرُ: (ما أُريكُم إلّا ما أراه)، قالَ ابنُ عَطيَّةَ: ﴿أَرَىٰ﴾: مُتَعَدّيَةٌ إلى مَفعولٍ واحِدٍ، وهوَ الضَّميرُ الَّذي فيه. وحَذفُ هَذا المَفعولِ مِنَ الصِّلَةِ حَسَنٌ لطولِ الصِّلَةِ[1]. وفي حَذفِ المَفعولِ كذلك إشارَةٌ إلى العُمومِ والغُموضِ وعَدَمِ الثِّقَةِ في كلامِ فِرعَونَ اللَّعين.

سِمَةُ كلامِ فِرعَونَ الغُموضُ، وذلك أدْعَى الى عَدَمِ الثِّقَةِ به

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَولِهِ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾:

أشارَت جملة ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ إلى انفرادِ فِرعَونَ بالرَّأي، فهيَ كِنايَةٌ عَنِ الطُّغيانِ والاستبدادِ، ففي الوَقتِ نَفسِه الَّذي يَطلُبُ فيه فِرعَونُ مَشورَةَ قَومِهِ ومُؤازرتَهُم يُصَرِّحُ بأنَّ الرَّأيَ لَهُ وحدَهُ دونَ سِواهُ، فيَكشِفُ حَقيقَةَ دَعواهُ بأنَّهُ ما طَلَبَ مَشورتَهم إلّا ليوافِقوهُ على رَأيِه دونَ اعتبارٍ لأقوالِهم.

المُستبدُّ يَتَظاهَرُ بالشّورى، لكنَّه لا يَعتَدُّ بقولِ مخالفٍ لرأيِهِ

مَعنى الواوِ في قَولِهِ: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾:

جاءَتِ الواوُ في جملة الفاصلة ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ عاطِفَةً؛ لقصدِ إشراكِ الجملة الثّانية مع الجملة الأولى في المحلِّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 557.

الإعرابيِّ، ولعدم المانع من العطف، فالجُملَتانِ خَبَريَّتانِ، وهما مقولُ فرعونَ، قاطَعَ بِهما فِرعَونُ حَديثَ الرَّجُلِ الحَكيمِ خَشيَةَ تَأثيرِه في قُلوبِ مَلَئِه، فكانَت وظيفَةُ الجملة الثّانيَةِ تأكيدَ مَعنى الجملة الأولى من وجهٍ، ومِن وجهٍ آخَرَ فإنَّ مَهَمَّتَها إبعادُ الخَطَأِ والضَّلالِ عَن رأيِ فِرعَونَ اللَّعينِ إمعانًا في تَضليلِ قَومِهِ وتَزيينِ الباطِلِ والفَسادِ لَهُم.

إبعادُ فِرعَونَ الخَطَأَ عَن رأيِهِ إمعانٌ في تَضليلِ قَومِهِ وتَزيينِ الباطِلِ لَهُم

فالمَعنى الحاصِلُ مِنَ الجملة الثّانيَةِ غَيرُ المَعنى الحاصِلِ مِنَ الجملة الأولى وفاقَ كما لا يخفى، وكما يقتضيه العَطفُ[1].

بَلاغَةُ القَصرِ ونَوعُهُ وغَرَضُهُ في جملة الفاصلة:

بُنيتْ جملة ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ على القَصرِ المُؤَكَّدِ بالنَّفي والاستِثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾؛ وذلك لتَأييدِ ما يَراهُ فرعون وأنَّهُ لا يَهديهِم إلّا سَبيلَ الرَّشادِ ولَيسَ كَما سَمِعوا مِنَ الرَّجُلِ المُؤمِنِ، ولِذَلِكَ تَرى هَذِهِ الجملة غِطاءً للحَقيقَةِ ولَيسَت هيَ الحَقيقَةَ. وقَد حَذَتْ هَذِهِ الجملة حَذوَ الجملة السّابِقَةِ في نَمَطِها الأُسلوبيِّ، وهيَ مِن وجهٍ تَوكيدٌ لَها، ومِن وجهٍ آخَرَ إبعادٌ للخَطَأِ والضَّلالِ عَنِ الَّذي يَرى. وقَولُهُ: ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يُقابِلُ قَولَهُ ﴿مَآ أَرَىٰ﴾، وكَأنَّ الَّذي يَراهُ هوَ سَبيلُ الرَّشادِ، لا ما قالَه الرَّجلُ المُؤمِنُ مِن أنَّ رَأيَ فِرعَونَ بقَتلِ موسى إنَّما هوَ سَبيلُ الهَلاكِ والاستِئصالِ[2].

حَصرُ الرَّشادِ في رأيِ فِرعَونَ دونَ بُرهانٍ دَليلٌ على فُقدانِ البيّنة

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿أَهۡدِيكُمۡ﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الجَليلُ عَن مَقالَةِ فِرعَونَ باستِعمالِ صيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿أَهۡدِيكُمۡ﴾؛ زيادَةً في تَدليسِهِ على قَومِه؛ إذ مُرادُه أنَّهُ لا يَتَجَدَّدُ مِنهُ لَهُم سِوى الهِدايَةِ، كَما في قَولِهِ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ﴾؛ لأنَّ الَّذي يُريكَ الشَّيءَ يَهديكَ إلَيهِ، وإن كانَ في ﴿أَهۡدِيكُمۡ﴾ مَعنًى زائِدٌ؛ لأنَّ الهِدايَةَ

زيادَةُ تَدليسِ فِرعَونَ على قَومِهِ بِإيهامِ تَجَدُّدِ هِدايَتِه لَهُم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 116 - 117.

خُطوَةٌ عَمَليَّةٌ تَلي الإراءَةَ[1]، والمَعنى: وما أدعوكُم إلّا إلى طَريقِ الحَقِّ والصِّدقِ والرُّشدِ. وقَد كَذَبَ في كلّ ذَلِكَ، وإن كانَ قَومُهُ قَد أطاعوهُ واتَّبَعوهُ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ [هود: 97]، وقالَ تَعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طَهَ: 79][2].

نَوعُ الإضافَةِ في ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾:

زيادَةُ الإضلالِ والتَّعميَة

في جملة ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أضافَ النَّظمُ الحَكيمُ لَفظَ ﴿سَبِيلَ﴾ إلى كَلِمَةِ ﴿ٱلرَّشَادِ﴾، وهيَ إضافَةٌ مَعنَويَّةٌ على مَعنى (اللّام)؛ أي: سَبيلًا للرَّشادِ، فأفادَتْ حصرَ السَّبيلِ بالرَّشادِ، وكأنَّه لا رشادَ إلّا في سبيلِهِ الَّذي هدى قومَهُ إليه على حَدِّ زعمِهِ.

وفي هَذِهِ الإضافَةِ زيادَةُ بَيانٍ لمَدى إضلالِ فِرعَونَ لهَؤُلاءِ الأتباعِ الَّذينَ استَخَفَّ بِهِم وأمعَنَ في الكَذِبِ عَلَيهِم.

بَلاغَةُ الاستِعارَةِ في لَفظِ ﴿سَبِيلَ﴾:

تَصويرُ طَريقِ الباطِلِ بأنَّه الحَقُّ المُبينُ زيادَةٌ في التَّعميَةِ والإضلال

في جملة ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ استُعيرَ لَفظُ ﴿سَبِيلَ﴾ للدَّلالَةِ على العَمَلِ؛ إذِ السَّبيلُ وسيلَةٌ للوصولِ إلى الرَّشادِ، وكانَت إضافَتُهُ إلى الرَّشادِ قَرينَةً على هَذِهِ الدَّلالَةِ؛ أي: ما أهديكم وأُشيرُ عَليكم إلّا بِعَمَلٍ فيهِ رَشادٌ، وكَأنَّهُ يُعَرِّضُ بأنَّ كَلامَ مُؤمِنِهِم سَفاهَةُ رَأيٍ[3]. وهَذِهِ الجملة مِن أعجَبِ الجُملِ الَّتي تَقطَعُ بِتَبَجُّحِ الباطِلِ، واستِخفافِهِ بِعُقولِ أتباعِه، ومُزايَداتِه على أهلِ الحَقِّ بالتَّمويهِ والادِّعاءِ، فيُصَوِّرُ طَريقَ الباطِلِ الأثيمِ في صورَةِ طَريقِ الحَقِّ المُبينِ، زيادَةً في التَّعميَةِ والإضلالِ لهَؤُلاءِ الأغرارِ المُخدوعينَ الَّذينَ عَطَّلوا عُقولَهم وطَمَسوا بَصائِرَهُم، فلا يَستَطيعونَ أن يُمَيِّزوا بينَ ما فيه صَلاحُهم وما فيه هَلاكُهُم.

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 116.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

مَعنى (أل) في ﴿ٱلرَّشَادِ﴾:

حصرُ الرَّشاد برأي الطّاغية زيادَةٌ في التَّضليلِ والتَّعميَةِ

أورَدَ النَّظمُ الحَكيمُ لَفظَ ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ في جملة الفاصلة مُعرَّفًا بِلام التَّعريف؛ لتفيدَ هَهُنا أنَّ المُرادَ جِنسُ الرَّشادِ على الحَقيقَةِ؛ أي: أنَّ مُرادَ فِرعَونَ أنَّهُ يهديهم إلى جِنسِ الرَّشادِ وأصلِ مَعدِنِه. وقد تكونُ اللّامُ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: الرَّشادِ الَّذي في ذهنِ فرعونَ، فكأنَّهُ يُقول: لا رَشادَ إلّا فيما أشَرتُ عَليكُم بِه، فما يقولُهُ لهم ويأمرُهُم به هو الرَّشادُ دون غيره. وفي ذَلكَ زيادَةٌ في التَّضليلِ والتَّعميَةِ على هَؤُلاءِ الأتباعِ المَخدوعينَ، فقَد كَذَبَ اللَّعينُ عَليهم وأضَلَّهُم، كَما صَرَّحَ بِذَلِكَ القُرآنُ فقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

البَأسُ والعَذابُ والعقابُ:

البَـأسُ أخَـصُّ مِـن مُـطـلَـقِ العَذابِ

نُكتَةُ استِعمالِ (البَأسِ) دونَ (العُقوبَةِ) أو (العَذابِ): أنّ العَذابَ والعِقابَ يَدُلّانِ على الجَزاءِ على وجهِ العُموم، ولَكِنَّ البَأسَ هوَ الجَزاءُ الشَّديدُ، فهوَ أخَصُّ في الدَّلالَةِ، فالبَأسُ: شِدَّةُ العَذابِ، ومِنهُ قَولُه تَعالى: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ [الأعراف: 165][1]، والمُرادُ بِهِ هُنا: القوَّةُ على العَدوِّ والمُعانِدِ، فهو القوَّةُ على الضُّرِّ، وكَذَلِكَ هوَ نُزولُ العَذابِ[2]. ولذلك كان أنسبَ لسياقِ غضبِ اللّه عليهم وتشديدِ الوعيدِ عليهم.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 555.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»